

قوم إذا غسلوا ثياب جمالهم * * * لبسوا البيوت إلى فراغ الغاسل
و منهم السیرافی النحوی الحسن بن عبداً كان ینسج ویأكل من كسب یده، و منهم الشیخ أبو
حامد الاسفراینی، قیل فی سیرته: إنه إمام المذهب علی ا لاطلاق وشیخ الإسلام و المسلمین
قاطبة، و كان یحضر مجلسه ثلاثمائة متفقه، كان هذا الشیخ یشغل حارساً فی اللیل لبیوت
الناس، و یقرأ و یطالع علی ضوء فانوس الحرس، و منهم الزبیدی محمد بن یحیی تزیید مصنفاته علی
مئة تصنیف فی شتی العلوم و الفنون، و قد بلغ به الفقر و الجوع أنه كان یضع نواة فی حلقة
یلوكها لیتعلل بها .

و منهم عبدالقادر السهروردي كان یبقي الیوم و الیومین لا یذوق الزاد، و كان ینقل الماء
بالقربة بأجر زهید. و كان الشهید الثاني زین الدین العاملي علی علمه و مكانته ینقل الحطب
علی ظهره إلى أهله لعجزه عن أجرة الخادم، و باع الشیخ عبدالمحسن الصوری عمامته لیشتري
بثمنها قوت یومه، و یکفی هذا العدد الیسیر مثالا لحیة قادة الفکر وائمة الدین و اللغة
البائسین، و تمهیداً ل بیان فکرة الزهد و أسبابها .

عاش الخلیل فی خص من القصب لا یملك فلسین، و اشتغل شیخ الإسلام و المسلمین حارساً، و مات
الافش من الجوع، عاش هؤلاء و أمثالهم فی الحرمان و هم یرون إلى الاموال تجبى من العامل
و الفلاح و غیرهما فی شرق الارض و غربها لیبذرها الخونة و المقامرون علی الحرام و الفسوق،
و یمتلكون بها الدور الشاهقة و الضیاع الواسعة، و كان من نتیجة هذا الوضع الشاذ أن تراكم
السخط و الاستیاء فی نفوس الشیوخ المحرومین من الذین قدمنا ذكرهم، و الذین لم نأت لهم علی
ذكر و عوضاً عن أن یحملهم هذا الاستیاء علی النضال و جهاد القائمین علی الظلم، فقد انقلب
فی نفوس الكثير إلى یأس من الاصلاح و تبدل الحال، و تولد من هذا الیأس فکرة الزهد فی
الحیة الدنیا، و التهوین من شأنها، و كان لهذه الفکرة خطورتها و تأثيرها فی الحیة
الاجتماعیة بین المسلمین، فكتب علماؤهم فی الزهد و أطالوا، و دعو إليه فی امساجد
و المحافل، و ألبسوه ثوب الدین و القداسة،